٢ بناء الإيمان وموارده

obeikandl.com

obeikandl.com

بناء الإيمان وموارده

تاريخ البشرية يظهر أن الإيمان بالخالق الملك المدبر الحي القيوم فطرة مغروسة في كل كائن بشري، فإنكار وجود الرب – عز وجل– هو الاستثناء في السلوك البشري، بل احتاج ذلك إلى مكابدة كبيرة من أهل الإلحاد وعناء ما بعده عناء، ولم تفلح حتى محاولات الإلحاد (الرسمي) التي تدعمها الدولة (كما في تجربة الاتحاد السوفيتي) في تحقيق أي نجاح لمشروع إنكار وجود الله، والمثير للبحث أن مسألة وجود الرب – عز وجل– لم تكن قضية القرآن الكبرى، بل يؤكد القرآن أن هذه القضية لم تكن موضع الخلاف الأهم بين البشر.

وفي اعتقادي أن هناك ثلاثة موارد رئيسة يستخدمها أي إنسان لبناء إيمانه، هي:

أ– الكون. ب– العقل. جـ– الوحي.

ولكل واحد منها وظيفة محدد، ولايستطيع أحدها أن يؤدي دوره دون الآخر، فإذا تلقى الوحي إنسان دون عقل فلا فائدة ترجى، والكون والعقل دون وحي قد يقودان إلى حياة بدائية مليئة بالخرافة، والوحي والعقل يحتاجان إلى ميدان "الكون" لاستنباط البراهين والممارسة العملية، وقد تكفل الوحي بتعريف البشر على الاسم الذي يدعون به هذا الرب الخالق وهو (الله) في الدين الخاتم، ومن ثم تعريفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ حتى يتمكنوا من تحقيق عبوديته في هذه الحياة، والعقل هو مناط التكليف والآلة التي يستخدمها الإنسان للاختيار بين البدائل، ويوفر الكون لمن تدبره أدلة لا حصر لها، تتضافر لتشهد على وجود خالق مدبر حي قيوم وعلى كمال شريعته وتحقيقها لمصالح البشرية العليا.

obeikandi.com

١-٢ الكون

يبدو أن مظاهر الكون من حول الإنسـان من لحظة وجوده على كوكب الأرض قد شـغلت تفكيره، واسـتفزت تأمله الطويل. فنظام الكون الذي نسـتطيع مشاهدته يدعـو إلى الإعجاب الكبير والدهشـة العظيمة، وقد بـدأت التأملات البشرية للكون في وقـت مـا قبل الحضارة، وتدل عليها الرسـوم والنقوش القديمة التي اكتشـفت في السنوات الأخيرة، ولكن أول ما وصلنا مكتوباً عن هذه التأملات الجادة كان التراث اليونـاني، ويعتقد أن «بطليموس»، هو أول من وضع تصوراً مكتوباً عن نظام الكون أودعه في كتابه «المجسـطي» الذي يحمل اسـمه العربي إلى اليـوم، وفي عالم بطليموس تكـون الأرض هـي مركز الكون، والشـمس والقمـر والنجوم تدور حولهـا، وتعزز المشـاهدة اليوميـة هذا التصـور، ومن ثم فقد ظـل مهيمناً على التفكـير البشري قرابة ألفي عام يدعمه اعتقاد خاطئ من الكنيسـة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون، وخلاف ذلك هو كفر وهرطقة.

ثم تسلّمت الحضارة العربية والإسلامية القيادة العلمية للعالم، ووفرت قاعدة عظيمة من التأملات والبحوث التي أعانت أوروبا على نهضتها الحديثة.

ومن داخل المؤسسـة الكنسـية نفسـها ظهر البولندي «كوبرنيكـوس» في القرن الخامس عشر ليقلب هذا المفهوم رأساً على عقب، ويفترض نظاماً تكون الشمس فيه هي المركز والأرض تدور حولها مع بقية الكواكب.

تسبب هذا الطرح في صراع رهيب في أوروبا، ولكنه كان إحدى الشرارات التي أشـعلت النهضة الأوروبية الحديثة، ليس فقط في أثره الفلكي، وإنما في أثره الفلسـفي العميـق، فـكان هذا التصور الجديد يقول: إن اعتقاد النـاس الطويل بأمر ما، ودلائل الحواس المباشرة لا يعني بالضرورة موافقة الحقيقة.

وتوالت الأرصاد والحسابات التي تؤيد تصور كوبرنيكوس، ومنها ترسخ فكر جديد يدعو إلى التثبت من المسلمات الوثوقية التي ربما تكون أبعد شيء عن الحقيقة.

وبعد ذلك بعقود قليلة وبالعقلية نفسها فاجأ «جاليليو» إيطاليا وأوروبا كلها بتصور جديد عن الحركة والسكون، فقد ظل العالم ألفي عام أسيراً لنظرة أرسطو التي كانت تقول: إن الأجسام تبقى ساكنة حتى تأتي قوة تؤثر فيها (تحركها)، وهي فكرة يدعمها الحس المباشر، وكانت هيبة أرسطو تمنع من توجيه النقد له، وهذه الهيبة لم تكن في أوروبا وحدها، بل كانت في العالم الإسلامي بشكل أكبر، فقد كان يسمى في المشرق الإسلامي المعلم الأول، أما في الحضارة الأندلسية، فقد قال فيه الفقيه والفيلسوف ابن رشد الحفيد كلاماً يخجل المرء من إيراده.

وفجأة قلب جاليليو الطاولة على أرسطو وبضربة عبقرية غيَّر جاليليو عبارة أرسطو إلى الآتي:

(تبقى الأجسام على حالها متحركة بانتظام أو ساكنة، حتى تأتي قوة تؤثر فيها) وعندما سأله المدهوشون من هذه الفكرة: (ما الذي يحرك الساكن؟ أجاب ما الذي يوقفه؟!).

قد يجد بعضنا صعوبة في إدراك الفرق بين عبارتي أرسطو وجاليليو، ولكن مؤرخي العلوم يعدّون التصور الجديد للحركة والسكون من أهم مسببات وثبة العلم الحديث.

دعم جاليليو نظريته، ببحوث، وتجارب كثيرة، ويوم وفاته ولد في إنجلترا، «إسحاق نيوتن» (١٦٤٢م) ليترجم فكر جاليليو بعبقرية فذة بما يسمى قوانين الحركة

التـي تفسر نظـام الحركة في الكون، وقـد تنبأ بمواقع الكواكب وسرعاتها، واسـتطاع أن يحسـب مواقـع سـقوط القذائف وحركـة المركبات، وصـاغ المعـادلات الرياضية لهذه الحركة.

وقبـل وفـاة نيوتن بـدأت تتوالى الدراسـات والبحوث التي تشـكك في تصوره لعلاقـات الأجسـام في الكـون ودقـة المعـادلات، وخصوصـاً من كل مـن «بيركلي» و«ليبنز» وهو في السبعين من عمره، فكتب هذا المقطع في نهاية كتابه العظيم (المبادئ):

(يتمجد اسـم الله الأعظم الأبـدي ذو البهاء المطلق، هو الأبدي اللانهائي القادر على كل شيء، العالم بكل شيء يصـل وجـوده الأبـد بالأبـد، وبقاؤه يـدوم من العدم إلى العدم، حاكم على كل شيء، عالم بكل شيء كان أو سـيكون هو ليس أبديًّـا، وغير محدود، بل هو الأبديـة واللاحدود، وهو ليس البقـاء والوجود، بل هـو الحاضر، وكل زمان، الباقي إلى الأبد، الحاضر في كل مكان وبوجوده الدائم في كل مكان ينشـأ الزمان والمـكان... الله لايكـترث بحركة الأجسـام، فلا تجد مقاومة من قدرة الله الحاضر في كل شيء).

هـذه إذاً النتيجة التي وصل إليها إسـحاق نيوتن أحد أعظـم علماء الطبيعة على مـر القرون، عندما شـارفت حياته عـلى النهاية، ووصلت حكمتـه وخبرته إلى أقصى مداها ونضجها.

توالـت الضربـات على نظريـة نيوتن عن الحركـة والجاذبيـة، وبخاصة بحوث الكهرومغناطيسـية التي أبدعها فراداي وماكسويل، ولم تستطع النظرية تفسير بعض الظواهر الحاسمة في الطبيعة.

obeikandl.com

وانطلاقاً من إيمان عميق بجمال الكون قاد «آينشتاين» العلماء إلى النسبية الخاصة ثم العامة، ويصعب على أي إنسـان غير متخصـص أن يفهم أسرار النظريتين، ولكنه يمكـن صياغة الرؤية الفلسـفية لهما بـأن العلاقة بين الأجزاء في الكون ليسـت علاقة قـوة كـما تصورها فيزياء نيوتـن، وإنما تصميم هنـدسي فائق الجمال في أبعـاد الزمكان (الزمان ــ المكان) وأن الزمان والمكان ليسا مطلقين، وإنما يعتمدان على موقع الراصد (نسبيان) وأن المادة والطاقة ليسا سوى وجهين لعملة واحدة. المهم أن تصميم الكون بدأ يظهر بشكل أجمل وأبسط مما كان عليه في عالم نيوتن.

والداعـي للتأمـل أنـه بعـد بحوث آينشـتاين وعلماء عـصره يمكـن أن نرى أن الفـارق بين عالمي بطليموس وكوبرنيكوس هـو فرق في الاصطلاح، فالحركة المطلقة غـير قابلـة للرصد في هذا الكون ولا فرق حقيقي بين أن تقول: إن الكوكب «أ» يدور حول الكوكب «ب» أو العكس.

ومـن المتوقـع أن يظهر علـماء يضيفـون إلى نظرية آينشـتاين، أو يعدلون أجزاء منها، أو ينسـفون فرضياتها «وقد حدث ذلك فعلاً» ويطرحون تصوراً جديداً، يفسر الكون بطريقة أبسط وأفضل وأنفع.

إذاً، فالكـون مخلوق من مدبر أعلى قادر حكيم حي قيوم، حارت العقول في كشـف أسرار بديع صنعه، غير أنها تصل إلى نتيجة حاسمة هي الإيمان بوجوده وحكمته عزوجل.

عندما نتحدث عن بناء الإيمان عن طريق تدبر الكون، فإن المثال الأعلى والقدوة لكل إنسان على هذه الأرض هو إبراهيم الخليل عليه السلام.

يقص علينا القرآن العظيم طريقة إبراهيم في معرفة ربه بتدبره للكون من حوله. وسواء كان هذا التدبر على سبيل المحاجَّة والإيضاح لقومه أم كان على سبيل البحث عـن الحقيقـة، فقـد توصل عليه السلام (أو أثبت) نتيجـة قطعية هي أن ما يغيـب (أو يأفل) بحسب التعبير القرآني لا يستحق أن يكون إلهاً.

وبذلك، فإن الخليل عليه السلام هو أبو المؤمنين في كل زمان ومكان، حيث حنف أي مـال عن الـشرك إلى الإيمان والتوحيد، ونقل التصور البشري للإله من التشـخيص إلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

تأمـل، يمتـدح القرآن الكريـم حنيفية إبراهيـم عليه السلام، ويصفه بأنـه كان حنيفاً، وأصـل الحنف هو حدب السـاق، ألا يثير الدهشـة أن علماء الفيزيـاء الآن وبفتح من آينشتاين قد وصلوا إلى نتيجة مؤداها أن الكون كله أحدب.
إلى أين يقود هذا الحدب؟

obeikandl.com

٢-٢ العقل

سئل أعرابي: بِمَ عرفت ربك؟

فقال: بنقضه للعزائم.

لاحـظ هـذا الأعرابي بفطرتـه السـليمة أن عزائم الخلق تجتمع عـلى أمر ما، ولا يسـتطيعون إدراكـه، بحيث تنقض عزائمهم، فاسـتنتج عقله وجـود إرادة عليا وقوة عظمى مهيمنة على إرادة الخلق.

وقـد تضافرت شـواهد العلـم الحديث عـلى أدلة لا تنتهـي (باسـتخدام العقل والكون) على وجود الرب العظيم - عز وجل-، وهناك قائمة طويلة من الكتب هذا هدفها، يمكن لمن يرون تدعيم إيمانه أن يستفيد منها.

إن إنكار وجود الله يتطلب هوى غالباً، ويضرب د. علي عزت بيجوفيتش مثالاً على ذلك، فيقول:

«إن علـماء الآثـار عندمـا يعثـرون على تحفـة فنية مطمورة تبدأ أسـئلتهم عن العـصر الذي عملت فيه، ومن أبدعها، وكيف حفظت إلى هذا التاريخ، إلى آخر هذه الأسـئلة، أما عندما يعثر على جمجمة بشرية بديعة الصنع هائلة الأسرار، فإن الإجابة تأتي هكذا: «إن الطبيعة خلقتها» ثم يتسـاءل رحمه الله: أليس في إنكار الإنسـان لوجود الله هوى بيِّن؟!».

ومثلـه ذهب الشـيخ محمد متولي الشـعراوي - رحمـه الله - إلى ضرب المثـل بالمصباح الكهربائي، إذ يقول:

obeikandl.com

«إن الناس تحفظ اسـم مخـترع المصباح الكهربائي وصانعـه الأول، وتقيم له التكريـم تلو التكريم، أمـا الشـمس التي تشرق عـلى كل الكـون لتنيره دون حاجـة إلى صيانة أو تبديـل، فنادراً ما نتفكر في مبدعها عزوجل».

جفري لانغ:

يتبـع المغلوب دين الغالب، هذه فكرة أثارها ابن خلدون، وقد تأتي بصيغة أعم بـأن المغلـوب يتبع ثقافة الغالب، ومنذ خمسـة قرون وكفة الـصراع على هذه الأرض تميـل لمصلحـة الغـرب المادي النـصراني، ومنذ قـرن انتصر الغـرب انتصاراً حاسـماً، وهيمن على مجريات الحياة بشكل قد لا يكون مسبوقاً، أما في العقود الثلاثة الأخيرة، فقد انفرد تماماً بقيادة البشرية.

وأمـا المسـلمون فهـم الآن في تخلف رهيـب في جميع مناحي حياتهم السياسـية والاقتصادية والعلمية، بل حتى في منظومة القيم الجمعية، غير أن المتأمل لحال التحول في الأديان يدهشه هذا الكم الكبير من أعلام الغرب وبسطائهم الذين يشهرون إسلامهم.

وقد اخترت مثالاً واحداً هو الدكتور جفري لانغ الأمريكي الأصل والولادة والمنشأ، وهو ليس حالة فردية، بل تيار عام لا تنقطع روافده.

وقـد ألـف الدكتور جفري لانغ كتاباً يسـتعرض فيه طريقه إلى الإسـلام أسـماه (struggling to surrender) ترجمـه الدكتور منـذر العبسي تحت عنوان: «الصراع مـن أجل الإيمان»، وقد يكـون العنوان الأقرب إلى الترجمـة الصحيحة هو: «الصراع من أجل التسليم»، ولا يخفى على من يعرف اللغة الإنجليزية جمال العنوان الذي ينم ظاهره عن التناقض، فكيف يصارع الإنسان من أجل أن يستسلم؟

والدكتور جفري لانغ أستاذ الرياضيات بذل مجهوداً كبيراً في البحث عن الحقيقة، حتى قرر اعتناق الإسلام، ويقول عن القرآن الذي كان السبب في إسلامه ما نصه:

«القرآن في رأي كثير من المسلمين واجه تحدي الغرب، وارتفع فوقه وإن القرآن هو القوة الدافعة وراء الصحوة الإسلامية العالمية، ولا يزال القرآن نحو بليون مؤمن هو البيان الأمثل لفضل الله على البشر والحكمة العليا وجمال التعبير الأسمى».

ثم يستشهد بكلمة لمحمد أسد، وهو كما تعلمون مسلم نمساوي تحول عن اليهودية إلى الإسلام:

«إنه كلمة الله».

من أجمل ما في كتاب الدكتور جفري لانغ شجاعته في مواجهة شبهات تُثار عن حياة الرسول ﷺ وعن الحديث النبوي وعن المرأة في الإسلام، بمعنى أن إسلامه لم يكن بادي رأي، بل عن تروٍّ ودراسة.

وأمثال الدكتور جفري لانغ كثيرون جداً، بل إن موكب مؤمني الغرب لم ينقطع على الرغم من حملات التشويه التي يقودها متعصبون، وما يلقونه من دعم من الجهات ذات المصالح الاقتصادية والسياسية، يعضد لها آلة إعلامية رهيبة مؤثرة، إضافة إلى ما يوفره جهلة المسلمين وغلاتهم من فرص للنيل من هذا الدين والتشكيك فيه.

حتى رحلة الحج في صورته الراهنة، كما يعلم أي إنسان أدى مناسك الحج مليئة بالصعوبات التي ستفتح أبواب الشيطان أمام أي مسلم جديد، ولكننا نجد أن مسلمي الغرب رجالاً ونساءً يرجعون من حجهم أقوى إيماناً وأشد تسليماً، من جراء تعاملهم الفكري المعمق مع أسرار الحج وغاياته.

إن مسـألة تحول غربيين كثر إلى الدين الإسـلامي مسـألة جديرة بالتبصر، فهذا الديـن ليـس عادة شرقيـة أو نادياً للمتعـة أو رياضة روحية، فالاسـتحقاقات المترتبة عـلى اعتناقه كبيرة جداً، بل تنطوي على تغيير شـامل في حياة الإنسـان، وتعيد ترتيب أولوياتـه وإدارة وقتـه، وتعيد تنظيم علاقاته، وتتطلب هـذه الخطوة الكبرى (اعتناق الدين الإسـلامي) تضحيات جسـيمة لا يقـدم عليها إلا من عرف الحـق، وإلا فإننا نعلـم جميعـاً أن العالم الغـربي يبحث كثيراً عن أديان الشـعوب الأخـرى ومعتقداتها، ونسمع عن بعض من أصبح بوذياً أو كنفوشيوسياً أو غيره.

يتسـاءل برنارد لويس، وهو أحد أكبر المسـتشرقين في هذا القرن مقرراً أن شـيئاً ما في الثقافة الإسـلامية يغرس في نفوس معتنقي الإسـلام اعتزازاً وثقة بالتفوق على الآخريـن، وقـد أصاب هنا كبد الحقيقة، غـير أنه يحار في الأسـباب، ونحن نعتقد أن سـبب هذا الشـعور هو موافقة الحق والفطرة؛ لأنه لا يوجـد أي شيء آخر يبعث على الاستعلاء بحدوده المقبولة مثل اتباع الحق بدعم من الفطرة.

ديكارت:

يعتقـد مالـك بن نبي المفكر الجزائري أن ديكارت هو أحد أكبر مؤسـسي الفكر الأوروبي الحديث، وهناك شـبه إجماع على أن مكانة ديكارت بوصفه مؤسسـاً للعقل الأوروبي أو أحد رواد تشـكيل العقلية الأوروبية الحديثة لا يعدلها مكانة، وقد شـغل ديكارت نفسـه في بداية حياته بقانون الشـك، إذ بدأ شـاكًّا في وجوده، ثم نهج طريقاً رياضيًّا ليثبت أنه موجود، وأطلق عبارته المدوية:

«أنا أفكر إذاً أنا موجود».

التي غالباً ما تفهم خطأً، بأن التفكير هو غاية الوجود، في حين مقصود ديكارت هـو أن التفكير برهان على الوجود، وبعد أن أثبت وجود نفسـه، وأن وجوده حقيقة، وليـس وهمـاً انطلق إلى إثبـات وجود الله -عز وجل- وبدأ يبرهـن على ذلك ببراهين متعددة في كتابه مبادئ الفلسـفة، وهـذه البراهين ترتكز في معظمها على فكرة واجب

الوجـود المشـهورة عند المتكلمين الإسـلاميين، غير أن ديكارت قـد أورد عدداً كبيراً مـن البراهـين على وجود الرب -عز وجل- وهناك كثير من الكتب التي تتحدث عن فلسـفة ديكارت، وفي سلسـلة نوابغ الفكر الغربي ألف الدكتور «نجيب بلدي» كتاباً عن ديكارت نشرته دار المعارف بمصر.

ومن ثم، فإن كل الطرق التي سلكتها البشرية، سواء بالفطرة المباشرة أو العقلية العلمية أو التأملات الصوفية أو التبصر الفلسـفي قد أدت بالجميع إلى نتيجة واحدة، وهي وجود الرب -عز وجل- الحي القيوم ذي الكمال المطلق.

النية:

تتوارث الثقافات البشرية مسلَّمة تقول:

إن أصحاب النيات الحسـنة ينجحون في الوصول إلى أهدافهم، هذه المسـلَّمة لم تـأتِ من فراغ، وإنما أصّلتها ممارسـة وتجارب وشـواهد كثيرة، ولـو كانت حكراً على ثقافة معينة أو شـعب بعينه لقلنا: قد تكون وهماً، لكنها قاسـم مشـترك بين شـعوب الأرض، وما من كتاب يتحدث عن تطوير الذات إلا يعرج على أهمية صلاح النية.

وهل ينجح ذوو النيات الحسـنة لأن هناك انسـجاماً بين مـا يظهرونه وبرامجهم الذهنية؟ هذا ممكن!

ولكنه يمكن الاسـتفادة من هذه الحقيقة (التي أصبحت مسـلَّمة لدى شـعوب الأرض) في تعزيز الإيمان بالله -عز وجل-.

إن النية قد تكون أحد مصادر تعزيز الإيمان، تدبر هذه الحقيقة، يستثمر شخصان المصادرنفسـها (مواهب، مال، جهد) للوصول إلى نتائج معينة يوفق أحدهما بشـكل كبير، ويخفق الآخر، والفرق بينهما كان في النيات فقط، ألا يدل هذا على وجود فاعل أعظم، عليم خبير؟

إن تدبر أثر النية لا يقود فقط إلى بذل الجهد في إصلاحها، وإنما أيضاً يعزز الإيمان.

obeikandl.com

■ ٢-٣ القرآن

القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي يمكن للعقل البشري استخدامه لبناء مشروع إيمانه وصيانته، وهذه أمثلة لبعض التأملات الجديرة بالتدبر:

• **إجماع حول القرآن:**

في أمـة تختلـف عـلى كل شيء، وخصوصـاً في أمـور الدين! كيف تـم الاتفاق عـلى هذا الكتاب مـن أوله إلى آخره بنفـس ترتيب السـور، وترتيب الآيات؟ ألا يثير ذلك دهشـتنا؟ إن أي مسـلم يؤدي الصلاة في أي مسـجد أو بقعة من بقاع المعمورة إسلامية كانت أو غير إسلامية يقرأ هذا الكتاب، ولا يجد فيه ما يزيد أو ينقص عما يقرؤه أي مسلم آخر في أي مكان كان. إن أي متأمل في هذه الحقيقـة الكبرى سـتتملكه حيرة عظيمة، خصوصاً في أمـة أمية كالأمة العربية لم يتوافـر لديهـا صناعة إنتـاج الكتب أو السـجلات، ولكن جواب الدهشـة، والحيرة يأتي من القرآن نفسه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سبحان الله العظيم، حيث استخدم صحابة رسول الله ﷺ لهذه المهمة، والله غالب على أمره، ولعل السـنة النبوية في اختلاف رواياتها وانتشـار الوضع فيها واختلاف الفرق الإسـلامية حولها ما يؤكد تميز القرآن وحده بالحفظ الإلهي. وبالمناسبة، فـإن الحديث عن وجود مصاحف أخرى عند بعض الفرق الإسـلامية مختلفة عـن المصحف الذي بين أيدينا الآن هو محض افتراء لا أسـاس له من الصحة، ويوجد متطرفون عند كل الفرق يدعون أن الفرقة الأخرى تزعم وجود نقص أو زيادة في القرآن، بمعنى أن فكرة وجود مصحف مختلف اخترعت للنيل من الآخر، وليس لدعوى امتلاك الحقيقة.

obeikandi.com

• هامان:

نقرأ في القرآن عن رجل يسـمى «هامـان» ويظهر من القصص القرآني أنه كان أحد مسـاعدي فرعون مصر في أثناء بعثة موسـى عليه السلام، وحتى نصل إلى سبب إدراجه ضمن سياق هذا الكتاب دعونا نستعرض بعض الحقائق:

أولاً: لم يرد ذكر لهامان في أي كتاب سماوي أو أثر تاريخي معروف.

ثانياً: اللغة الهيروغليفية ظلت طلاسم مجهولة، حتى القرن التاسع عشر عندما تمكن عالم المصريات الفرنسي «شـامبليون» من فك رموزها عند عثوره على ما يسمى حجر رشيد، وهو حجر يحمل نصين: الأعلى منهما مكتوب باللغة اليونانية وتحته ترجمة باللغة الهيروغليفية (الحجر الأصلي محفوظ بالمتحف البريطاني، وشـاهدت نسـخة منه في المتحف المصري) وبمقابلـة النصـين وبإجراء دراسـات معمقة على الآثـار المصرية تمكن شـامبليون من تطوير ما يمكن تسـميته أبجدية هيروغليفية، سـاعدت علماء المصريات على بناء سجل تاريخي دقيق للأسر الفرعونية الحاكمة، ووجـدوا التشـكيلات الإداريـة لكل حاكـم فرعوني، وعنـد تفحص التشـكيل الوزاري لفرعون مصر في أثناء البعثة الموسوية ظهر لهم اسم هامـان وزيـراً للقلاع والإنشـاءات، وقد ذكر الله العظيـم: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ فمـن أعلـم محمـداً ﷺ باسـم هامـان ووظيفته، التفكير المنطقي السـديد يقود قطعـاً إلى الإجابة التي تنصر الإيمان بالله، وتدعم أركانه.

• مراد هوفمان:

مـراد هوفمان المسـلم الألماني الـذي كان دبلوماسـيًا لألمانيـا في الثمانينيات في المغـرب العـربي أثـارت دهشـته قدرة المسـلمين من غـير العـرب على حفظ

القرآن، أليس محقاً في ذلك؟ تصور أنك تقرأ كتاباً من ست مئة صفحة بلغة غريبة، أي صعوبة تقف أمامك؟ فكيف بحفظ ما قرأت؟ الأمر قريب من المستحيل. أما في الحالة القرآنية فآلاف مؤلفة من المسلمين من الفرس والهنود والملايو والبربر والقبائل الإفريقية يحفظونه عن ظهر قلب دون أن يستطيعوا قراءة سطر واحد من كتاب آخر في اللغة العربية، ألا يثير هذا الأمر دهشة العقول؟! ويعمق الإيمان، الوعد المكتوب في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

• موريس بوكاي:

أنجز هذا الطبيب الفرنسي رحلة شاقة من البحث العلمي الرصين في الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن.

قارن من خلالها نصوص هذه الكتب المتعلقة بتاريخ الكون والإنسان والأحداث التاريخية المهمة، وبعد رحلة علمية رائعة اتضح لهذا الباحث الفرق الجوهري بين القرآن العظيم المحفوظ من التدخل البشري والكتب السماوية الأخرى التي لم تتشرف بالحفظ الإلهي لحكمة أرادها منزلها عز وجل. يختم هذا العالم بحثه الشائق بخاتمة جميلة اخترت للقارئ الكريم نهايتها:

«لا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جدًّا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث

obeikandl.com

إن احتـواءه عـلى المعطيات العلمية المدروسـة في عصرنـا تبدو كأنهـا تتحدى أي تفسـير وضعي، عقيمة حقًّا المحاولات التي تسـعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية».

خاتمـة جميلـة لكتاب رائع وبحث علمي رصين من عقلية فلسـفية اشـتغلت خـارج الإطـار الإسـلامي، ولكن المنهجيـة العلمية المتسـمة بقـدر عالٍ من التجرد والموضوعية قادته إلى تلك النتيجة الباهرة.

• الإعجاز العلمي:

وقع هذا الموضوع ضحية لطرفين: إما مغالين، يتعسـفون كل حقيقة علمية؛ ليبحثـوا لهـا عـن أصـل في القـرآن، وجفاة لا يقبلـون بحث هـذا الموضوع مطلقاً، ولكن المتأمل قد يجد طريقاً في الوسـط، حيث تواجهه آيات واضحة عـن نظريـات علمية أصبحت في حكـم الحقائق، والآيـات دلالاتها قاطعة، وفي اعتقـادي أن أوضح مثال على ذلك هو أطوار خلق الإنسـان التي تتكرر الإشارة إليها في آيات كثيرة وبشكل متسق على الترتيب الآتي:

طين ← نطفة ← علقة ← مضغة ← عظام ← لحم ← خلقاً آخر

وهذه هي المراحل التي أوجدها البحث العلمي الراهن، بل أصبحت بحكم الحقائق، تأتي في القرآن أول مرة في التاريخ البشري، وكشفها علميًّا لم يتحقق إلا في القرن العشرين، هذه واحدة من حالات متعددة تقوم الآن هيئة علمية مستقلة بالتحقق منها ونشرها.

وفي رأيي أنه يجب التعامل مع هذه الأمور بحذر شديد؛ حتى لا نندفع خلف تنظير علمي نضعه حقيقة لا يرقى إليها شـك، ونتعسف تفسير آية؛ لتتماشى معها، ثم يثبت فيما بعد خلاف النظرية، مع أن القرآن العظيم ليس في الواقع في حاجة إلى مثل هذه الاستدلالات، فهو مطلق وغير مفتقر إلى البرهنة.

القرآن والنقد:

كثيراً ما نسمع أن قداسة القرآن في نفوس المؤمنين به تمنعهم من نقده وملاحظة تاريخيته وتناقضاته عـلى حد تعبيرهم، الجزء الأول من هذه العبارة صحيح، فللقرآن في نفوس المؤمنين به قداسة لاتعادلها قداسة، أما النقد والتحليل فقد تصدت له مجموعة من المسـتشرقين وغيرهم، واسـتثمروا جهوداً غير عادية، فما النتيجة التي خرجوا بها؟

لـن أسـتنزف وقت القارئ أو أجـرح ذائقته في اسـتعراض بعض مقولاتهم، وإنما سـأكتفي بعبارة للمفكر المغربي المشهور الدكتور «محمد عابد الجابري»، وهو من تعلمون موسـوعيته واطلاعه على مثـل تلك الجهود، وقد نشر هذه المقالة في مجلة المجلة في العدد ١٤٦٢ وتاريخ ١٧-٢٣/ ٢/ ٢٠٠٨م بعنوان: (القرآن والنقد) وهذا نص العبارة:

«حاول بعض المسـتشرقين العثـور في القرآن على ما يشـبه المعطيات والمتغـيرات التي جعلت النقد التاريخـي لكل من التـوراة والإنجيل مـبرراً، بل ضرورياً، فلم يخرجوا بنتيجة تذكر».

٢-٤ الرسـول

شـخصية الرسـول ﷺ أحـد أهـم مصـادر الإيمان بـالله -عزوجل- وبرسـالة الإسلام الخالدة الخاتمة.

فحياتـه الكريمـة معين لاينضـب للبراهين على صـدق بلاغه، وفي كتب السـير مـا يغنـي عن أي اسـتطراد هنا، وقد تسـببت بعـض الأحداث في حياتـه ﷺ وحتى زمننـا هـذا في إسـلام كثـير مـن النـاس، نتذكـر هنا تلـك المسـتشرقة التي قـرأت أن الرسـول ﷺ عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أمضى بقية حياته الشريفة دون أي نوع من الحراسة، وهو حق، فلم يكن هناك حراسة على حجرات الرسـول ﷺ في المدينـة، فكان أن اسـتنتجت أنه يمكن للإنسـان أن يكذب على كل الناس إلا على نفسـه ما يقطع بصدق رسـالته، تذكروا أن حياة الرسـول ﷺ لم يكن بهـا أسرار إطلاقاً، فقد نقلت لنا تفاصيل التفاصيل عن حياته الشريفة، وهناك ملمح جميل سمعته من الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- عن مفكر هندي يقول:

« إن أكثـر ما أثار دهشـته هو سـيرة الرسـول ﷺ في سـكنه في حجـرات بالمسـجد يمر عليـه الناس خمس مـرات في اليوم والليلة عـلى الأقل، فالزعماء والأغنيـاء في هـذه الأرض يحرصـون عـلى أن يكـون لهم قصور بعيـدة عن العمـران تتوافر فيها الخصوصيـة؛ حتى يسـتمتع بملذات الدنيـا بعيداً عن الناس، وهو أمر درجت عليه الأمم في ماضيها وحاضرها».

نتذكر هنا أن البيوت الملاصقة للمساجد في أحيائنا الآن تقل أسعارها أليس كذلك؟!

obeikandi.com

كثير من شـانئيه ﷺ قد اسـتغلوا سـيرته للنيل من صدق رسـالته، وقد قرأت، وتدبرت كثيراً من الكتابات عن هذا الأمر، وهي تركز على الغزوات وقتل رجال بني قريظة والسـبي والغنائم وتعدد الزوجات، وخصوصاً الزواج من عائشـة رضي الله عنها في سن مبكرة، أو الزواج من زينب رضي الله عنها.

سأطرح على القارئ الكريم ثلاثة تفسيرات محتملة لهذه المواقف:

التفسير الأول:

أن المنتقد (الشـانئ) يقرأ أحـداث ما قبل ألف وأربع مئة سـنة، بعقلية اليـوم وشرائحه وأعرافـه، والمنطق الحديث والفكر والفلسـفة الغربية الآن تركز على تاريخية الأحداث والتصرفات، وضرورة إسـقاطها على عصرها، وقراءتها في سـياقها الزمني، غير أنهم ينسـون أو يتناسون هذا الأمر عند دراستهم سيرة رسول الإسلام ﷺ .

التفسير الثاني:

يقرأ الغربيون سـيرة الرسول ﷺ وفي مرجعيتهم الفكرية صورة ذهنية عن سـيرة المسـيح عليه السلام (الحقيقية أوالميثيولوجية) والمعلوم أن المسـيح عليه السلام جـاء لغاية محـددة وهدف واضح هو تصحيـح الانحراف في بني إسرائيـل، وجاءت ولادته عليه السلام صدمة روحية هائلة في مجتمع غرق في ماديته، حتى حولوا المعبد إلى مغارة لصوص بحسـب النص الإنجيلي، ولا بـد أن يوضـح المدافعـون عن سـيرة نبـي الإسـلام ﷺ أن حياته ورسـالته تختلف تماماً عن رسـالة أخيه المسـيح عليه السلام فقد جاء محمد بن عبدالله ﷺ ليختم رسـالات السماء، وليطرح مثالاً للكمال البشري في جميع مناحي الحياة.

ما الفائدة لو جاء الرسول الخاتم، ولم يقاتل، ولم تكن له رغبة في النساء (مثل يحيى أو المسيح عليهما السلام) فلم يتزوج، ولم يطلق؟! كيف تستفيد البشرية منه بوصفه قدوة؟

جاء محمد ﷺ ليكون «دراما بشرية متكاملة»، حزن وسرور، ربح وخسارة، حصار وحرب، زواج وطلاق، قضاء ودهاء سياسي، خطط حربية، نصر وهزيمة، أصحاب أوفياء وقرابة وآل، وشانئون محاربون ومنافقون، خريطة متكاملة لحياة الإنسان على هذه الأرض.

كثير من الكتابات الغربية الناقدة تغيّب هذه المسألة المهمة، وتفترض أن يكون النبي مسالماً دفاعيًّا فقط مثالاً للأخلاق السلبية متنازلاً عن كل حقوقه.

التفسير الثالث:

> كثير من الغربيين فلاسفة ومفكرين قديماً وحديثاً لم يغفروا لأمتنا فوزها بالاختيار لحمل رسالة الله الأخيرة لبني الإنسان، فلم يتحملوا وصول هذا الشرف لأمة أمية تعيش في الصحراء.

الدارس لموقف الغرب النصراني من الدين الإسلامي في أول لحظات الالتحام يلاحظ موقفاً شديد العدائية من قبل رجالات الدين على وجه الخصوص، وفي نظري إن أحد أهم الاعتداءات التي تمت على الحقيقة في التاريخ البشري حدثت عندما ترجم القساوسة في أوروبا لفظ الجلالة «الله» كما ينطق في اللغة العربية «Allah»، ثم راحوا يوهمون دهماء أوروبا بأن المسلمين «العرب» يعبدون إلهاً اسمه الله غير رب موسى وعيسى عليهما السلام، ومعلوم أن السواد الأعظم من جيوش الأوروبيين في الحملات الصليبية تم تهييجها؛ لتخليص الأماكن المقدسة من الكفار الوثنيين، الذين هم بالطبع العرب المسلمون، وهذا لايعني استبعاداً أو التقليل من تأثير الأبعاد الاقتصادية والسياسية في تلك الحملات الصليبية البربرية.

وإحـدى أهـم ظواهـر هـذه العدائية تغييـب الإرث المحمدي، بـل الثقافة العربيـة والإسـلامية عن الاستشـهاد بها أو الاسـتفادة من حكمها عـبر التاريخ، إن جميع كتب تطوير الذات وعلم النفس تستشـهد بالحكمة الإنسـانية من الشرق والغـرب، فتجـد في أي كتـاب مـن كتب تطويـر الـذات في المكتبة الغربيـة أقوالاً لبوذا وكنفوشـيوس وزرادشت، بل حتى إنه يتم الاستشهاد ببعض تراث القبائل الإفريقية، غير أنك لا تكاد تجد أي استشهاد بالموروث العربي والإسلامي، لا من القـرآن الكريـم، ولا من الحديث النبـوي، ولا من حكماء المسـلمين، وكأن هناك تحسساً مفرطاً وتغييباً تامًّا لهذا الموروث.

وعـلى الرغم من كل هذا، فهناك كثير من نصـارى أوروبا والمشرق من أهل الإنصـاف والعدل الذيـن قالوا كلمة الحق في نبينا محمـد ﷺ وقد أنجزت بعض البحوث والكتب التي توثق شهاداتهم في حق المصطفى ﷺ .

يقول «مايكل هارت»:

«إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشـكل أسـمى وأبرز في كلا المسـتويين الديني والدنيوي. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير لـه للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعـدّ أعظم شـخصية ذات تأثـير في تاريخ البشرية».

محمد الرسول ومحمد الإنسان:

روي عـن النبـي ﷺ أنه كان يقول في الصباح والمسـاء: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم،**

حنيفـاً مسـلماً، ومـا كان من المشركـين»، هذا واحد مـن مجموعة مـن الأحاديث التي يسـهل فهمها عندمـا نفترض أن النبي محمداً ﷺ يتـصرف، ويتحدث أحياناً بوصفه محمداً الإنسان، وحينها يشهد في بعض الأحيان لمحمد النبي بالرسالة، ويخبر صحابته بأنهم أعلم بأمور دنياهم، ويغير موقعه في مواجهة بدر بناء على مشورة.

ربـما يـؤدي التمييز بـين محمد الإنسـان ومحمد النبـي ﷺ إلى بعـض القراءات الجديدة لسيرته ﷺ وعلاقته بآل بيته وصحابته.

obeikandl.com